دور التربية الفنية في إعداد المواطن وإدماج الأطفال في وضعية صعبة من خلال التجربتين "المالية" و"العمانية"

عزيز مشواط*

التربية الفنية كما سيتبين لاحقاً آخذة في فرض نفسها على البرامج التربوية للأنظمة التعليمية عبر العالم، حيث تطالعنا بين الفينة والأخرى تجارب تستعير من هذه التربية أدوات الاشتغال وأشكال التعبير لتطوير الملكات العقلية والمهارية والوجدانية، فانتقلت بذلك من مجرد مادة تعليمية إلى قطب الرحى والمرتكز الأساس الذي يضمن اللحمة للنظام التعليمي.

وبهذا المعنى، أصبح شبه مستحيل فصل التربية الفنية عن التربية بمفهومها الشامل كبناء متكامل، تندرج في السياق العام لإعداد الفرد عقلياً وخلقياً وجسدياً ونفسياً، حيث باتت تحتل موقعاً ريادياً في البرامج التعليمية للعديد من دول العالم، وبخاصة المتقدمة تربوياً، بما هي أداة فعالة لتحقيق أهداف تتراوح ما بين ضمان النمو العقلي والحركي والوجداني السليم، وإدماج المهمشين والأطفال في وضعية صعبة، ولا ينحصر الاعتقاد بأهمية مكون التربية الفنية وفعاليته التربوية والاجتماعية على دول الشمال ذات المنظومات التعليمية المتطورة بقدر ما يتجاوزه إلى دول الجنوب أيضاً، التي، وعلى الرغم من كل ما يمكن تسجيله على مستوى تراجع تصوراتها وخياراتها التربوية وتدهورها، فقد تقدم من حين لآخر تجارب ذات قيمة كالتي بين أيدينا، وتتعلق بتجربتين رائدتين قدمتا لمنظمة اليونسكو تهمان وضعية الفن والتعليم الفني ببلدين من بلدان الجنوب؛ الأول عربي هو سلطنة عمان، أما الثاني فأفريقي هو مالي.

في هذه الورقة نقدم ترجمة من الفرنسية[1] وعرضاً لتجربتين رائدتين تجسدان دور التربية الفنية في إعداد المواطن وإدماج الأطفال في وضعية صعبة، من خلال التجربتين "المالية" و"العمانية"، تمثل الأولى خلاصة لبحث قام به ساموبل سيبيدي (Samuel Sibidi) مدير المتحف الوطني لمالي بعنوان «الموروث الثقافي والتربية الفنية في خدمة الأطفال المنحدرين من الأوساط الفقيرة» (PATRIMOINE CULTUREL ET EDUCATION ARTISTIQUE AU SERVICE DE L'EPANOUISSEMENT DES JEUNES DEFAVORISES)، أجري في دولة مالي بدعم من اليونسكو، ويدخل في سياق مشروع جهوي لتكوين المكونين في التربية الفنية والورش لفائدة الأطفال المنحدرين من أوساط فقيرة. وهو تصور نظري وتطبيقي لتوظيف التربية الفنية من خلال المتاحف الوطنية في إدماج الأطفال المنحدرين من أوساط سوسيوثقافية متدنية عبر مجموعة من الآليات التربوية التي تحتل فيها التربية الفنية واستغلال الموروث الثقافي الفني والأثري موقعاً مركزياً في إطار مجموعة من الشراكات أطرافها الأسرة، والمدرسة، والمنظمات غير الحكومية.

أما الشق الثاني فهو ترجمة لبحث أجراه الدكتور محمد العامري من كلية التربية شعبة البرامج والتكوين بجامعة السلطان قابوس بعُمان، ويسطر فيه الهيكلة العامة لبرنامج التربية الفنية للسلطنة، وأسسها المرجعية والفلسفية والاجتماعية والمعرفية، بالإضافة إلى استعراض الأهداف العامة التي يجب أن تتغياها التربية الفنية في إعداد المواطن، لتمكينه من الانفتاح على محيطه الإقليمي العربي والدولي.

الحالة الأولى: مساهمة المتاحف في برامج التربية الفنية بأفريقيا

أبانت تجارب المتاحف في أفريقيا والمتحف الوطني في مالي على امتداد العقدين الأخيرين من الاشتغال في إطار أنشطة تهم الناشئة والأطفال أن المقاربة المعرفية الصرفة غير قادرة على الإقناع بأهمية الموروث الثقافي.

وتكمن أهمية التربية الفنية في قدرتها على تطوير التجارب الشخصية الإبداعية من خلال تطوير رهافة الإحساس، كما تعمل على تعريف الأطفال بالأعمال الفنية في أبعادها الشكلية الجمالية والحسية، وتتضح أهمية هذه المقاربة من جهة تمكينها الأطفال المتمدرسين المنتمين لأوساط هامشية من إعادة خلق روابطهم بمحيطهم وتدعيمها، الأمر الذي يمكنهم من استعادة التوازن الذهني والسيكولوجي، ويساعدهم في الاندماج الاجتماعي، فعن طريق الانفتاح الذهني والحس النقدي الذي توفره التربية الفنية، يستطيع هؤلاء الأطفال الاندماج في العالم المعاصر بكل حيثياته وتفاصيله.

ومن جهة أخرى، وفي سياق العولمة، فإن التربية الفنية مدعوة إلى الاعتماد على الموروث الثقافي والإبداع الفني كمحاور ومرتكزات أساسية، عبرها تستعيد الإنتاجات الثقافية المحلية قيمتها في عيون الأطفال، وتمكن كذلك من تدعيم إبداعي يستمد مرجعياته من الثقافة المحلية، ويسهم في إغناء التعدد الثقافي.

من هذا المنطلق، وفي غياب برامج للتربية الفنية في المدارس، ومع ارتفاع عدد الأطفال الذين يعانون من وضعية التهميش بالمدن الأفريقية، يمكن للمتاحف أن تملأ هذا الفراغ، وبخاصة عن طريق تأسيس مشاريع وورش نموذجية للتربية الفنية، يستفيد منها الأطفال المنحدرين من أوساط مهمشة على أن تستغل المتاحف أرشيفاتها وأدواتها ومعروضاتها كدعامات بيداغوجية ذات فعالية بالغة.

وقد تأسست هذه الورش الرامية إلى إدماج الأطفال الذين يعانون من وضعيات اجتماعية صعبة، بالتعاون مع مدرسي هؤلاء الأطفال (تتراوح أعمارهم ما بين 12 و16 سنة)، وينتمون إلى الصف الثاني من السلك الأساسي، وتنشط هذه الورش الأطر التربوية للمتحف، بتعاون مع مجموعة من الفنانين التقليديين والعصريين، وكذا بشراكة مع منظمات غير حكومية مهتمة بالأطفال في وضعية صعبة.

وبهدف إعطاء منشطي هذه الورش الدعامات البيداغوجية الملائمة، اقترح استفادة المعنيين من تكوين ذي صبغة محلية يتوج بإنتاج دليل توجيهي لفائدة المكونين، تشارك فيه المعاهد الثقافية التي تتوفر على برامج تربوية تهم الشباب.

الورشة الأولى: الفنون التشكيلية
تعتمد هذه الورشة على مجموعة من الوسائط من قبيل النحت الشعر، والرسم، والتصوير، وتلوين الأقمشة، وفي هذا الإطار شكلت مجموعات التماثيل والأنسجة وسائل مساعدة.

الورشة الثانية: صناعة أدوات الموسيقى والممارسات الموسيقية
الوسائل التعليمية المعتمدة: مجموعة مهمة من الآلات الموسيقية، وعتاد مهم من الأرشيف يضم وسائل سمعية - بصرية تهم خاصة الموسيقى "المالية".

1. التطبيق
يجري التكوين وورش العمل بالمتحف الذي يوفر بمعروضاته وأرشيفه الفضاء الأمثل لاجتذاب الأطفال. ويعتبر الرهان الذي يجب ربحه ذلك المتعلق بإيجاد بروتوكول للتعاون بين مجموعة من المتدخلين: المتحف من جهة، والتربية النظامية والمنظمات غير الحكومية المهتمة بالأطفال المهمشين من جهة أخرى، وذلك من أجل التأكد من قدرة هذه الورش على الاستمرارية والتأثير في تطور الأطفال، كما أن اندماج أسر المعنيين في هذه الشراكة عامل حاسم في إنجاحها.

وبالنظر إلى استحالة عقد شراكة مع المدرسة العمومية، فان الورش ستركز على الأطفال الذين يعانون من الفشل الدراسي في إطار شراكة مع المنظمات غير الحكومية والآباء.

2. أهداف الورش
■ **أهداف عامة:**
1. الإسهام في الانفتاح الفكري والفني للأطفال.
2. الرفع من قيمة الإرث الثقافي وتشجيع التعددية الثقافية.

■ **أهداف خاصة:**
3. تكوين المؤطرين والفنانين لتعليم الممارسات الفنية.
4. تشجيع ولوج الأطفال المهمشين لعالم الفن.

■ **النتائج المتوقعة:**
1. ينتظر أن يكتسب المنشطون والفنانون الطرق التربوية الملائمة لتدريس التطبيقات الفنية من خلال إنتاج دليل تربوي خاص بالتربية الفنية.
2. أن يتمكن الأطفال المنحدرون من أوساط مهمشة من الانفتاح على محيطهم الثقافي.

■ **مؤشرات قياس النتائج:**
1. عدد المنشطين والمدرسين الذين تم تكوينهم.
2. دليل الطرق التربوية الذي تم إنجازه.
3. عدد الأطفال الذين شاركوا في الورش.

3. التقويم
ينصب تقويم التجربة على مستويين: الأول كمي، والثاني نوعي، حيث يتم في المستوى الأول قياس النجاح بعدد المشاركين في الورش، وانتظامهم أثناء الحصص، واحترام البرامج التي تم تسطيرها.

أما المستوى النوعي فيهم:
1. أثر النشاط التربوي على السلوك الاجتماعي الثقافي والاقتصادي للأطفال، وهل استطاعت الأنشطة أن تغير من نظرة الأطفال واهتمامهم بمحيطهم الثقافي والأدوات التقليدية؟ وهل الأطفال يتواصلون بشكل أفضل؟ وهل طورت الورش خيالهم؟
2. درجة نجاح الشراكة بين مختلف الشركاء: وهل يعتقد الشركاء حقاً في أهمية الأنشطة الفنية؟ وما درجة انخراطهم؟ وهل تتبعوا فعلاً الأطفال؟

خلاصة:
يمكن لهذا المشروع أن يسهم في تمكين الأطفال والمراهقين من تمثل جيد للأهمية التاريخية والثقافية للماضي والحاضر التي تمثله الثقافة والفنون الوطنية وإسهامها في تدعيم السلام والتسامح والهويات الإبداعية للمجتمعات الأفريقية المعاصرة.

الحالة الثانية: الهيكلة العامة لبرنامج التربية الفنية (الفنون الجميلة والتقليدية) بسلطنة عامة برسم 2001

1. الأرضية العامة لإنجاز البرنامج
أ. الإطار والإمكانيات الفنية بعُمان
يجب أن تسهم التربية الفنية في تطوير قدرة المتعلمين على التمثل الإيجابي للقيم الجمالية والفنية لعمان ولمختلف حيثياتها المتنوعة، وهو التنوع المبني على قيمة المبدع، لذا فالتعبير الفني يجب أن يعكس عظمة المبدع العماني من خلال مختلف الأساليب والأدوات التي يوفرها المحيط المحلي من قبيل الصلصال، وأغصان الأشجار، وغيرها.

ب . التراث الخالد وأمجاد الماضي
تستهدف التربية الفنية إحساس التلاميذ بإرثهم الثقافي وبالموروث العماني، كما يجب أن تتضمن التربية الفنية إحالة على تاريخ مختلف الفنون والحضارات والتيارات الفنية ماضياً وحاضراً.

ج . المجتمع العماني والتربية الفنية
يجب أن تقود التربية إلى تقوية روابط الأطفال بمجتمعهم، وتدعيم وعيهم الوطني في مختلف المجالات كالاقتصاد، والبنية الاجتماعية للمجتمع العماني بصفة عامة، كما يجب على برنامج التربية الفنية الاندماج كليته في سياق الخصوصيات المجتمعية العمانية، بهدف الإسهام في تكوين المواطن العماني الصالح من خلال خلق تواصل حقيقي بين الواقع والممارسة.

د . موقع التربية ضمن خارطة البرامج المدرسية
يجب اعتبار التربية الفنية أحد الأعمدة الأساسية في البرامج الدراسية، وإقحامها في برنامج مندرج يتضمن تعليماً نظرياً وتطبيقياً مع إقرار الرسم والتشكيل والنقش والحياكة.

2 . الأسس المرجعية لبرنامج التربية الفنية

أ . المرتكزات الفلسفية:
تشكل التربية الفنية مادة تربوية يجب أن تسهم في تربية المواطن العماني في إطار من التوازن والتفهم وإحساس التلاميذ بالقيم الفنية، وكذا تزويدهم برؤية شمولية لمحيطهم، على أن تتيح لهم فرص تنمية كفاءاتهم التطبيقية من خلال دراستهم لتاريخ مختلف الاتجاهات الفنية، كما يجب من جهة أخرى أن تعزز الانتماء إلى منطقة الخليج وإلى الأمة العربية الإسلامية.

ب . المرتكزات الاجتماعية:
يجب على التربية الفنية أن تلعب دوراً إيجابياً في تنمية سلوك التلاميذ، وتعليمهم احترام المحيط ويجب أن ينمي عدد الوسائل المتاحة الانتماء الجماعي للأفراد، من خلال المشاركة في إبداع أعمال فنية جماعية أو فردية. ومن المفترض أن تعمل التربية الفنية كذلك على تنمية الكفاءات الفنية من قبيل حس الملاحظة، والضبط، والمرونة، واحترام الآجال الزمنية للأعمال.

ج . المرتكزات النفسية:
يجب على التربية الفنية مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين وخصائص مراحل تطورهم النفسي، على أن تزودهم بالكفايات اللازمة للحكم على الأعمال الفنية، وتشجيعهم على تبادل الآراء فيما بينهم مع ما يلزم ذلك من احترام، بالإضافة إلى احترام أسلوب كل طفل ومقدراته التقنية.

د . المرتكزات المعرفية:
تمكن التربية الفنية المتعلمين من توسيع دائرة معارفهم في ارتباط بثقافتهم الفنية وسنواتهم العمرية، كما يجب أن تنمي قدرات التفكير لدى المتعلمين، من خلال تقديم مختلف الأعمال الفنية واستعراضها نظرياً وتطبيقياً وفي علاقة دائمة مستمرة بالبرامج المدرسية.

3 . الأهداف العامة لبرنامج التربية الفنية في التعليم

يمكن إدراج الأهداف العامة لبرنامج التربية الفنية على الشكل التالي:

- تعيين القيم الجمالية والفنية المكونة في المحيط والصناعات التقليدية العمانية وتمريرها إلى المتعلمين بواسطة أنشطة إبداعية تراعي قدراتهم ومستوى نموهم العقلي.
- الاعتراف بأهمية الموارد الطبيعية المتوفرة في المحيط في علاقتها بالفن الذي ننتمي إليه.
- التعرف على قيمة الأدوات الضرورية للإبداع ومحاولة الحفاظ عليها.
- تنمية الحس الجمالي لدى المتعلمين وإحساسهم بالقيم الجمالية للفن العماني، وتشجيع هذا الفن على التطور.
- تطوير القدرات الفنية والنقدية لدى المتعلمين بشكل يمكنهم من اكتساب طريقة للتعبير عن واقعهم ورؤاهم للمستقبل.
- تطوير قدرات المتعلمين النقدية اتجاه الأعمال الفنية.
- مساعدة المتعلمين على اكتساب حس الملاحظة وضبط الوقت واحترامه.
- تشجيع روح التعاون أثناء التعلم، من خلال تشجيع العمل بالمجموعات أثناء إنجاز الأعمال الفنية.
- تنمية قدرات المتعلمين في مراعاة لحاجياتهم واهتماماتهم.
- الاستفادة من الموروث الثقافي الفني العماني والإسلامي والعربي من خلال زيارات المتاحف والمواقع الأثرية.
- تشجيع تطوير قدرات المتعلمين وتدعيم مستوى قدراتهم الفنية.
- الرفع من قيمة مختلف أنواع الأعمال الفنية وتعليم الأطفال احترام مبدعيها.
- المشاركة في تنمية محيط المتعلمين في المدرسة وتطويره كما في منازلهم.
- المشاركة في المسابقات الوطنية والدولية، وتمثيل سلطنة عمان على المستوى الخليجي والعربي والدولي.
- تنمية شعور المتعلمين بالإشكاليات المعاصرة، وتمكينهم من التعبير عنها عن طريق إبداعاتهم الفنية.
- تمكين المتعلمين من الاستفادة من تزجية وقتهم الثالث من خلال أنشطة فنية.

عزيز مشواط
باحث في السوسيولوجيا والتربية من المغرب

الهوامش

* هذه المقالة كتبت خصيصاً لـ "**رؤى تربوية**".

[1] للاطلاع على مضمون الورقتين كاملاً باللغة الفرنسية يمكن الرجوع لموقع منظمة اليونسكو على شبكة الإنترنت: www . unesco . org